علم القافية

1- تسميتها: قيل إنها سميت قافية، لأنها تقفوا أثر كل بيت وقيل : لأنها تقفوا أخواتها.

2- حدها: اختلفت الآراء حول حد القافية وتعريفها، ولكن مذهب "الخليل بن أحمد الفراهدي" كان الأرجح إذ يقول في تحديد القافية: إنها من آخر حرف في البيت إلى أول ساكن يليه من قبله، مع حركة الحرف الذي قبل الساكن، أي مجموع الحروف المتحركة بين الساكنين الأخرين في البيت، مع ما قبل الساكن الأول.

كقول الشاعر:

لك الخير إني قائل غير مقصر فمن لي باستيفاء ما أنت فاعل

فالقافية هي: فاعل.

ويقول أمرؤ القيس:

مكر مفر مقبل مدبر معا كجلمود صخر حطه السيل من عل

فالقافية هنا كلمتنان هما: من عل.

3- حروفها: هي حروف في أواخر الأبيات تعطي لموسيقى القافية رنينا عاليا، وقد جمعها "الحلتي" بقوله:

مجرى القوافي في حروف ستة * كالشمس تجري في علو بروجها

تأسيسها، ودخيلها مع ردفها * ورويتها، مع وصلها وخروجها

أ- حرف الروي: وهو الحرف المركزي أو الأساسي في القافية، وبه تسمى القصيدة، وهناك بعض الحروف لا تصلح أن تكون رويا، وهي:

* **الألف:** سواء كانت ألف الإطلاق، وهي الناشئة عن إشباع حركة الروي التي هي فتحة، كقول الشاعر:

أبا الزهراء قد جاوزت قدري بمدحك بيد أن لي انتسابا

أو ألف التثنية كقول الشاعر:

لا أقول أسكنا إلى هذه الدار غزورا ولا أقول استعدا

أو ألف منقلبة عن نون التوكيد الخفيفة، كقول الشاعر:

يحسبه الجاهل ما لم يعلمها شيخا على كرسيه معمما

فالفعل يعلما فعل مضارع مبني على الفتح، لاتصاله بنون التوكيد الخفيفة المنقلبة ألفا.

* **الياء:** وتشمل ياء الإطلاق الناشئة عن إشباع حركة حرف الروي إذا كانت هذه الحركة كسرة، من ذلك قول الشاعر:

فلسطين الحبيبة كيف أغفو وفي عيني أطباق العذاب

كما تشمل ياء المتكلم، كقول الشاعر:

وكفى غراما أن أبيت متهيما شوقي أمامي والقضاء ورائي

والياء الأصلية في بنية الكلمة، كقول الشاعر:

كفي دعابات الجنون فما بقى لهواك معنى يرتجيه ويتقي

* **الواو:** وتشمل واو الإطلاق، وهي الناشئة عن إشباع حرف الروي الذي حركته ضمة، كقول الشاعر:

لا لا خديجة أورثتك أمومة والكرمل العالي أبي إذا أنسب

أو واو الجماعة، كقول الشاعر:

يا خير من جاء الوجود تحيةمن مرسلين إلى الهدى بك جاءوا

أو الواو اللاحقة لضمير الجمع، كقول الشاعر:

فتزود للهوى أسفا وأنسى يا مسكين حبهم

* **الهاء:** ومنها هاء السكت، وذلك في قل الشاعر:

بيض الحمام حصبهنة أني أردد سجعهنه

ومنهاء هاء الضمير الساكتة، كقول الشاعر:

رب طفل في أمسه كان نسيا * وهو اليوم حادث في زمانهْ

ومنها هاء الضمير المتحركة، كقول الشاعر:

يشكو إليك إذا وعيت شكاته مما رأى في ليله ونهاره

ويشترط ألا يكون قبل هاء الضمير حرف مد، وإلا اعتبرت الهاء رويا، كقول الشاعر:

يا صديقي الملاح أين هي الأرض ومالي على الضحى لا أراها

* **التنوين:** سواء كان تنويم الترنم الذي يلحق القوافي المطلقة، كقول "جرير":

أقلي اللوم عاذل والعتابا * وقولي إذا أصبت لقد أصابًا

أو التنوين العالي ، وهو الملحق بالقوافي المقيدة كقول الشاعر.

قالت بنات العم ياسلمى وإنا * كان فقيرا معدما قالت وإنن وهذه

الحروف التي لا تصلح أن تكون رويا ، يجب إعتبار الحرف الذي قبلها هو حرف الروي ، ومعنى ذلك أن جميع الحروف الصحيحة أن تكون رويا ، وكذلك يصلح للروي حرفا اللين وهما : الواو والياء الساكنتان المفتوح ما قبلها .

ملاحظة: الأصل في الألف والتاء أن تكونا وصلا ، فكان الخطاب إذا لم يلتزم الحرف الذي قبلها كانت رويا ، وكذلك مع تاء التأنيث إذا لم يلتزم الحرف الذي قبلها كانت أيضا رويا .

ب- حرف الوصل:

وهو الحرف الوحيد الذي يأتي بعد حرف الروي ، أي إشباع حركة الروي المطلق ، ويكون على ثلاث حالات .

* وصل ناتج عن إشباع حركة الروي المطلق ، فالفتحة تصير ألفا ، والضمة واوا ، والكسرة ياء .
* الهاء ، سواء كانت هذه الهاء ساكنة أو متحركة .
* وصل أصلي ويقتصر على ألف المد وألف القصر .

ج- حرف الردف:

وهو حرف مد قبل الروي مباشرة (الألف – الواو – الياء) أو يكون حرفا لين ، وحرفا اللين هما : الواو والياء الساكنتات المفتوح ما قبلهما ، مثل : قول ، وليل وقد سمي ردفا لوقوعه خلف راكب الدابة .

د- حرف التأسيس:

وهو عبارة عن ألف مد يكون بينه وبين الروي حرف صحيح متحرك، يسمى الدخيل، مع ملاحظة أن الردف والتأسيس لا يجتمعان في قافية واحدة، كما لا يجوز تعاقب الواو والياء كردف قافية في القصيدة نفسها، كما أنه لا يكون التأسيس إلا بالألف .

ملاحظة : إذا دخلت هذه الحروف أول القصيدة، التزمت في جميع أبياتها، يقول الشاعر .

من لم يمت غبطة يمت هرما * للموت كأس فالمرء ذائقها

فالقافية ذائقها ، والألف تأسيس، والهمزة دخيل والقاف روي، والهاء وصل، والألف خروج ، ولم يرد فيها الردف الذي لا يجتمع مع التأسيس والدخيل .

ويقول الشافعي :

وجدت سكوتي متجرا فلزمته * إذا لم أجد ربحا فلست بخاسر

وما الصمت إلا في الرجال متاجر * وتجره يعلو على كل تاجر

فالألف في كلمتي (خاسر) و (تاجر) تأسيس، والراء هو الروي، والحرف الذي بين الألف والروي هو (السين في الخاسر) و (الجيم في تاجر) هو الدخيل، والياء هي حرف الوصل الناتج عن إشباع حركة حرف الروي التي هي الكسرة .

هـ- الخروج :

وهو حرف مد ناتج عن إشباع هاء الوصل المتحركة في آخر البيت، وقد سمي بذلك لأنه يخرج به من البيت / أو لبروزه وتجاوزه الوصل .

وقد يكون ألفا بعد الهاء المفتوحة ، كقول لبيد

من معشر سنت لهم آباؤهم * و لكل قوم سنة وإمامها

لايطبعون ولا يبو رفعا لهم * لا يكمل مع الهوى أحلامها

فالميم روي ، والهاء وصل ، والألف خروج

وقد يكون ياء بعد هاء الوصل المكسورة ، كقول الإمام الشافعي :

إن الفقيه هو الفقيه يفعله * ليس الفقيه ينطقه ومقاله

وكذا الرئيس هو الرئيس يخلقه * ليس الرئيس بقومه ورجاله

فاللام روي، الهاء وصل، والياء المتولدة عن إشباع كسرة الهاء هي خروج.

وقد يكون واو بعدها الوصل المضمومة، كقول الإمام علي:

صبر الفتى لفقره يجله * و بذله لوجهه يذله

يكفي الفتى من عيشه أقله * الخبز للجائع أدم كله

فاللام روي، والهاء وصل، والواو الناتجة عن إشباع هاء الوصل المضمومة، خروج.

والخروج من الحروف غير الضرورية في القصيدة، إلا أنه إذا ظهر في بيت، لزم بنفسه سائر أبيات القصيدة، ولا ينوب عنه حرف مد آخر لأنه هو الحرف الأخير في القافية.

4- أنواع القافية:

القافية في الشعر العربي نوعان: قافية مقيدة، وقافية مطلقة، فتقيد القافية وإطلاقها أمر مرتبط بسكون حرف الروي وحركته.

أ- القافية المقيدة: ما كانت ساكنة الروي، كقول الشاعر:

عبس الخطب فابتسم وطغى الهول فاقتحم

والقافية المقيدة لا وصل فيها.

ب- القافية المطلقة: هي ما كانت متحركة الروي، أي بعد رويها وصل بإشباع كقول الشاعر:

فما أبغي سوى وطني بديلا * وحسبي ذلك من وطني شريف

كذلك من القافية المطلقة ما وصلت بهاء الوصل، سواء أكانت ساكنة أو متحركة، فمن الساكنة، قول الشاعر:

محجوب إن جئت الحجاز * وفي جوانحك الهدى له

حبا وشوقا للرسول * و آله أزكى سلاله

ومن النوع المتحرك، كقول الشاعر:

إذا كنت في حاجة مرسلة * فأرسل حكيما ولا توصية

وإن باب أمر عليه التوى * فتشاور لبيبا و تعصيه.

5- عيوب القافية:

يلتزم الشاعر في القافية حروفا و حركات معيّنة، فإذا خرج عن هذا الالتزام وقع في عيب من عيوب القافية، و هي كثيرة، و لعل أهمها ما يلي:

أ- التضمين: و حدّه أن لا يستقل البيت من حيث المعنى، بل يكون مرتبطا بالبيت الذي يليه، أي أن يكون المعنى مجزأ، ثم يأتي الجزء المكمل للمعنى في البيت التالي، كما في قول الشّعر:

و هم وردوا الجفار على تميم * و هم أصحاب يوم عكاظ إني

شهدت لهم مواطن صادقات * شهدنا لهم بحسن الظن مني

و يرى بعض العروضيين أنّ البيت إذا كان إيضاحا للول فليس بعيبن كقول "متمم بن نويرة":

لعمرك و ما دهري بتأبين هالك * و لا جزعا مما أصاب فأوجعا

لقد كفن المنهال تحت ردائه * فتى غير مبطان العشيات أروعا

- و قد قنن التضمين عندما كانت القصيدة العربية تعتمد استقلالية البيت كوحدة.

ب- الإيطاء: و هو إعادة كلمة القافية بلفظها و معناها بعد بيتين على الأقل إلى سبعة أبيات على الأكثر، و هذا يدل على قلة إلمام الشّاعر بمفردات اللغة و ضعف معجمه اللّفظي، إذ عليه أن لا يكرّر ألفاظ القافية، و مما يستحسن في الشّعر أن لا يكرّر الشّاعر اللفظ بعينه في مسافات متقاربة، و كلما بعدت المسافات كان ذلك أفضل، كما جاء في قول "النّابغة الذبياني":

و واضع البيت في خرساء مظلمة * تقيد العير لا يسري بها الساري

لا يخفض الرّزق في أرض ألم بها * و لا يضل على مصباحه الساري

ج- الإقواء: و هو الجمع بين حركتين مختلفتين متقاربتين في المخرج، و هما: الضمة و الكسرة، و منه قول "النابغة الذبياني":

آمن آل مية رائح أو مغتدي * عجلان ذا زاد و غير مزودِ

رغم البوارح أن رحلتنا غدا * و بذاك خبرنا الغراب الأسودُ

و للإقواء أثر سلبي في الإيقاع أقل حدة منه في الإصراف، لتقارب مخرج الكسرة و الضمة في الجهاز الصوتي، و بنفس القياس أجازوا الردف بين الياء و الواو.

د- السناد: و هو اختلاف ما يراعى قبل الروي من الحروف و الحركات، أما سناد الحركات فهو كثير، و قد أجازه العروضيون، و أما سناد الحروف فهو نوعان:

- **سناد الردف:** و هو أن يكون بين بيت مردف و أخر غير مردف، كقول الشاعر:

إذا كنت في حاجة مرسلا * فأرسل حكيما و لا توصه

و إن باب أمر عليك التوى * فشاور لبيبا و لا تعصه

و قد أجاز العروضيون تعاقب الواو و الياء في الرّدف، لتقارب مخرجيهما مع ما في ذلك من خلل إيقاعي بسيط، كقول "جميل بن معمر":

ألا ليت أيام الصّفاء جديد * و دهرا تولى يا بثينة يعود

فنهتاكما كنا نكون و أنتم * قليل و إنما تبذلين زَهِيد

- **سناد التّأسيس:** و هو أن يسند بيت و يترك آخر، كما نجد في قول الشّاعر يتهكم من امرأة ثرثارة:

لسان الطويل يداني السحاب * و أمطاره الكلم الحامية

و همسك يسمعه في الطريق * كنفثات فوقنا غادية

إن نمت حل الهدوء الجميل * و إن قمت حلت بنا الداهية

قصدتكم أبتغي راحة * فعدت و قد ضاعت العافية

فيا ويح زوجك مع رفقة * ينوق بها العيشة المضنية

فالروي هنا هو الياء، و قبلها مد التّأسيس في الأبيات الأربعة الأولى، و لكن البيت الأخير خلا من هذا المد، و هو غير مؤسس.

و- الإجازة: هي اختلاف حرف الروي تماما، بأن يأتي تارة لاما و تارة ميما، كما في قول الشّاعر:

ألا هل ترى إن لم تكن أم مالك * بملك يدي إن الكفاء قليل

رأى من خليله جفاء و غلظة * إذا قام يباع القلوص ذميم

فالإجازة بمعنى التعدي، كما سماها بعضهم "الإعطاء"، لأنّ الشّاعر أعطى الروي ما لا يستحقه من الحروف. و إذا كان هذا العيب معروفا في الشّعر القديم، فإنّنا لا نجده في الشّعر الحديث.

* و يفضّل لسلامة القافية أن تخلو من اختلاف الحركة التي قبل الروي، فإن بدأ الشّاعر القصيدة بروي حركة الحرف الذي قبله كسرة، فإنه يحسن أن يلتزم هذه الكسرة قبل الروي في كامل القصيدة، و لكن هذا الأمر إن كان مقبولا نظريا فإنه صعب التحقيق في الواقع العملي.

تطبيق: حلّل القافية في المقطوعات التالية:

أولا:

أراك عصي الدّمع شيمتك الصّبر * أما للهوى نهي عليك و لا أمرُ
نعم أنا مشتاق و عندي لوعة * و لكن مثلي لا يذاع له سرُّ
إذا اللّيل أضواني بسطت يد الهوى * و أدللت دمعا من خلائقه الكبرُ
تكاد تضيء النار بين جوانحي * إذ هي أذكتها الصبابة و الفكرُ
معلّلتي بالوصل و الموت دونه * إذا متّ ظمآنا فلا نزل القطرُ
سيذكرني قومي إذا جدّ جدّهم * و في اللّيلة الظّلماء يفتقد البدرُ

ثانيا:

بان الخليط و لو طوعت ما بان * و قطعوا من حبال الوصل أقرانا
حي المنازل إذ لا نبتغي بدلا * بالباب دارا و لا الجيران جيرانا
أم عمر جزاك الله مغفرة * ردي علي فؤادي كالذي كانا
ألست أملح من يمشي على قدم * يا أحسن الناس كل الناس إنسانا
يصر عنا ذا اللب حتى لا حراك له* وهن أضعف الله أركانا
يا حبذا جبل الريان من جبل * و حبذا ساكن الريان من كانا
و حبذا نفحات من يمانية * تأتيك من قبل الريان أحيانا

ثالثا:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم * و تأتي على قدر الكرام المكارمُ
و تعظم في عين الصّغير صغارها * و تصغر في عين العظيم العظائمُ
خميس في شرق الأرض و الغرب زحفه * و في أذن الجوزاء منه زمازم

رابعا:

نسـي الطـين سـاعـة أنــه طيــن * حقير فصال تيها و عربــدْ
و كسـا الخـز جسـمـه فـتـبـاهــى * و حوى المال كيسه فتمــردْ
يـا أخـي لا تـمـل بـوجـهـك عنــي * ما أنا فحمة و لا أنت فرقـدْ
أنت لن تصنع الحرير الذي تلبسه * و الـلـؤلـؤ الــذي تـتـقـلــدْ
أنت لا تـأكـل النُظـار إذا جـعـت * و لا تشرب الجُمان المنضدْ
أنـت مثـلـي مـن الثــرى و إلـيــه * فلماذ يا صاحبي التيه والصدْ